

دكتور محمد أبو موسى
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

الفنُّ العَذْلِيُّ وفتراء التراث

يطلب من
مكتبة وهبه
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة : ت ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

جميع الحقوق محفوظة

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاطوغلى) القاهرة

ص.ب ٥٨ (الدواوين) - تليفون : ٢٢٠٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تُعَدُّ رسالة «القوس العذراء» من روائع الأستاذ محمود شاكر
التي تحتاج إلى فضل نظر ، حتى ننتفع بها كما ينبغي من حيث
هي منهج في قراءة التراث .

وحالها في ذلك كحال كثير من روائعه وودائعها التي هي
أحوج إلى المدارس والتحليل ، والمناقشة ، لأنها منهج مستقل
وطريق مغاير ، وحسبها أن تكون حياتنا الفكرية والأدبية في
ميزانها حياة فاسدة ، وأن الكتب التي أثرت فيها تأثيراً بيئاً
وطيَّرت ذكرها في الناس كُتِبَ فارغةً ، وأن تقاليدها العلمية
التي ترسخت فيها ونُصبت إلى رجال عُرفوا بأنهم بُناة هذه
التقاليد كل هذا زيف .

ثم - وهذا مهم - إن تاريخ هذه الأمة ، وحضارتها ،
وتراثها ورجالاتها ، كل ذلك كان ولا يزال مستهدفاً لهذه

الحركة فقُبِّح التاريخ ، وزُيِّفت الحضارة ، وامْتُهِن التراث ،
وغُيِّر في وجوه الرجال .

وجرثومة هذا كله ترجع إلى من نُسِمِيهِم الكبار ثم أَخَذَهُ
عَنِيهِم من يأخذ من غير نظر ، وراج ذلك ، وشاع ، وأُلف ،
رغم نكره ، حتى صار أبناء هذا الجيل :

« يتلمسون المعابة لأسلافهم ، وآبائهم في خبر مطروح أو
كلمة شاردة ، أو ظاهرة محدودة ، فيبنون عليها تعميماً في
الحكم ، يُتَبَيِّحُ لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَسْتَقِيَ ما في نفسه من حب القدح
والتَّردُّد في طلب المذمة ، أو أَنْ يَتَقَلَّدَ شعار...التجديد ، أو
الإغراب ، طلباً للذكر ، وحباً للصيت» (١) .

ويتناول هذا البحث رسالة «القوس العذراء» من حيث هي
منهج في قراءة التراث ، وقد عُتِنَا بالتراث تحقيقاً ودراسة ،
على الحد الذي كان يَنَافِي هذين البابين ، ولكن العناية
بقراءة التراث على الحد الذي سوف نبينه في هذا البحث ،

والى تَسْتَخْرِجُ مضمرة ، وتجهز بهمسه وتبين عن وحيه ،
فذلك ما لم نَصْلُ فيه إلى حد يذكر .

وقد رأينا في هذه الرسالة طريقاً قَوْماً لهذا الباب ، وكان
الأستاذ شاكر شق هذا الطريق ، وصَيَّرَه مُسْتَبِهاً لاجباً في هذه
الرسالة وأحسب أن هذا من مقاصده .



من الحقائق المقررة أن نهضات الأمم لا تكون إلا بعقول
أبنائها واجتهاداتهم الخلقة ، وأن تجديد العلوم ، والمعارف ،
ليس له إلا طريق واحد ، هو أن نُعمل عقولنا في هذه العلوم ،
والمعارف وأن نستخرج منها مضموناتها ، المضمرة في كلماتها ،
أو التي هي مندسة مبهمة في نفوس كاتبها ، غمغت بها
آثارهم غممة تامة لا يَلْتَقِطُها إلا الباحث الدَّرب .

هكذا يجب أن يكون تجديد علومنا ومعارفنا، وهكذا فعل
الناس في عصرنا ، وهكذا فعل سلفنا في عصورنا الأولى ،
ولم نعرف أمة بَنَتْ حضارتها بعقول غيرها ، ولا جَدَّدَتْ
معارفها بمعارف غيرها .

لن يكون هناك نمو إلا إذا كان الامتدادُ امتداداً من داخل الحياة الفكرية ، والأدبية ، يتناسل بعضه من بعض ، كما يتناسل جيل من جيل ، ولن يكون هناك تطور إلا إذا استخرجت هذه المرحلة مما قبلها ، ولن يتم هذا إلا إذا دارت عقولنا ، وقلوبنا في هذا الفكر الذى بين أيدينا ، ودارت به ، وعانت تحليله ، والاستنباط منه ، وكانت هذه الأفكار هى مادة الدرس فى حلقات العلم ، فى كل جامعة . ومادة النظر بين يدى كل كاتب ، الكل مُتَّجِهٌ إليها ، متعاون فى بابها ، وحينئذ ينبلج نور معرفة جديدة ، وتتخلق حياة فكرية وأدبية جديدة ، تُولد مما بين أيدينا ، وتُنسَبُ إلينا ، وتُنسَبُ إليها ، ونقدّم من خلالها تَجَرِبَتَنَا وذَاتَنَا ، ورسالتنا ، ويقرأُ الناسُ فيها كفاح أفئدتنا ، التى تستمد مددها من نسيجنا الحضارى وتاريخنا المتميز.

والنهضات الأدبية والفكرية ، تعنى مزيداً من التآلق ، لرجال الفكر والأدب فى تراث الأمة ، مهما أَوغلوا فى القدم .

فلا يزال «هوميروس»، ورجالات عصره ، يتألقون في
سماوات أقوامهم ، مع اختلاف الأطوار والأحوال .

وقد أكسبت النهضة الحديثة لأُمم الغرب، آثار حُكماء
اليونان مزيداً من العناية ، والدراسة ، أَزَكَّتْ هذه
الآثار، وكشفت جوهرها، وَأَبَانَتْ عن معادنها ، وذلك يفوق
بكثير ما أُتِيج لها في غير هذا العصر ، ثم إن هذا العصر لم
يتجاوزها إلا بعد أَنْ اتكأَ عليها ، وأَدْخَلَهَا في صميم بنيته ،
ولو بُعِث هؤلاء الحكماء وقرأوا الحواشي والأعلاق، التي علقها
الناس على كلامهم لعرفوا بعضاً ، وأعرضوا عن بعض ،

وقد مضينا من أول إِفَاقَتنا في هذا العصر على غير هذا
الطريق، ولم يكن موقفنا من أعلام العلم في أُمتنا موقفاً منصفاً،
لم نعكف على ترائنا عكوفاً يجعله يتوهج في ضمائرنا ، ولم
تتألق في سماواتنا فراقدنا ، وَإِنَّمَا خَبَتْ ، وطمسناها بأيدينا .

تألق في سمائنا رجال آخرون ، لأنحصيلهم عدداً ،
وحيثما قرأت لمعت كوكبة ، من الأسماء الأعجمية بين عينيك،
وصرنا نمثل هامشاً على كتاب الحضارة الغربية المسيحية .

وفى الوقت الذى نقول فيه إننا يجب أن ننتفع بتجارب الآخرين نغمض عيوننا عن تجربتهم الحقيقية فى تأسيس نهضتهم ، ونكتفى باصطناع ما أبدعوه لأن ذلك أيسر السبيلين . وقد أبعد كثير من أذكائنا عن هذا التراث الذى غُيب عنهم إبان تكوينهم ، ووقر فى نفوسنا أنه قديم يرتبط مضمونه بأزمته ، وأننا حين نواجه عصرنا به كالذى يدخل ساحة الحرب متقلداً سيفاً ورمحاً ، وقالوا إن الشعر القديم شعر عاجل مشاكل جيله ، وأحسن وصف النوق ، والأطلال ، وتلك أمة قد خلت .

وفى هذا السياق تأتى «القوس العذراء» ، لتضع منهجاً فى القراءة ، والتمثل والفهم ، والاستخراج ، ولتبعث الشماخ ابن ضرار القيسى وترفعه فوق القمم العوالى فى دوحة الشعر صداحاً ، شجى الغناء ، ثم تنطقه بالقول الفصل فى قضية من أطرف القضايا .



ونبدأ بالوقوف عند هذه الرسالة ، لتعرف على جدة أفكارها ، وطرافة قضاياها ، وحدثتها ، وليس هذا مدخلا

للمقصود وإنما هو من جوهره ، من حيث إن غاية البحث هو الكشف عما انطوت عليه هذه الرسالة ، من طريقة في استنطاق كلام القدماء واستخراج دلالاته ، وتحليل إشاراته ، ومضنون الرسالة هو ما أنطق به الأستاذ شاكر شاعرنا القديم ، وما استخرجه من تحت لفظه .

وتدور هذه الرسالة حول جملة من الأفكار والخواطر والوسوسات انبعثت في نفس كاتبها بلقاء بينه ، وبين صاحب لاتبلى مودته ، دار بينهما حديث في شأن اتقان العمل ، وقد ذكر الأستاذ شاكر أنه لما قفل عائداً إلى داره أبى هذا الحديث « إلا أن ينقلب عائداً معي في الطريق ، يسأرنى ، ويصاحبنى ، ويؤنس وحشتى ، ويُسِرُّ إلى بوسوسة خفية من أحاديثه التى لا تتشابه ، والتى لا تنتهى والتى هى أيضاً لا تُملَّ » (١) .

أما الوسوسات التى أَسَرَّ بها هذا الحديث إليه ، فهى النظر إلى كل حى غير الإنسان من حيث إتقانه لما هو بصدده ، ثم النظر إلى الإنسان من هذه الجهة ، فكل حى غير الإنسان يمضى

فى أمره ، وفى تدبير حياته ، وحياطة معيشته ، على سنة
لا تتبدلُ ، وهَدَى واضح لا يلتبس ، تمرُّ الأحقاب ، والقرون
وتختلف البقاع ، والأحوال ، وتأتى من هذه الأحياء أجيال
بعد أجيال « والنهج فى كل درب من دروبها هو هو لا يتغير ،
والهدى فى كل شأن من شئونها هو هو لا يختلف ، تولد الذرة
من النّال ، وتنمو ، وتبدأ مسيرتها فى الحياة ، وتعمل فيها عملها
الجدّ ، وتفرغ من حق وجودها ، ثم تقضى نحبها ، وتموت ،
هكذا هى مذ كانت الأرض ، وكانت النّال ، لا تتحوّل
عن نهج ، ولا تمرّق من هدى ، وتاريخ أحدثها ميلاداً فى
معمعة الحياة ، كتاريخ أعرق أسلافها هلاكاً فى حومة الفناء ،
لاهى تُحدث لنفسها نهجاً لم يكن ، ولا هى تتبدع لوارثها
هدياً لم يتقدم » (١)

لم تدرك هذه الكوائن الفروق بين الأشياء فعاشت بمنجاة
من حومة الاختيار ، تلك التى سقط فيها الإنسان وقلق ،
وتحير ، فتمايزت أفرادها ، واختلفت أعصره ، وأجياله ،
وقامت له حضارات ، وانهدمت حضارات .

(١) القوس العذراء ص ٢٠

يقف الكاتب عند هذا العالم الحيّ الأعجم ، والذي لا تختلف
أواخره عن أوائله ، والذي ترى أجناسه كأن كل جنس منها
فرد واحد ، يتكرر في هذه الآحاد التي لا تتناهى ولا تختلف ،
والذى يعيش في الزمن وهو مسالم له ، فلم يقلق الذى فات منه
بخبر سلف صالح ولا طالح ، ولم يعرف له تاريخاً نبيلاً ولا
خسيساً ، ولم يتطَّلِعْ إلى الغد كيف يكون ؟ وإنما طرح ذلك
كله .

ثم وقف الأستاذ بعد ذلك ، عند الإنسان وعمله فأفصحت
نظرتيه عن إدراك عميق لقدرات الإنسان ، وطاقاته الهائلة .
وذكر أن هذا الإنسان كان في مطلع فجره على حال تشبه
أحوال غيره ، من حيث قوة الفطرة ، واقتيادها له ، وإيقاع
حركته على وفق تصاريفها ، وظل أمره كذلك زمناً .

« فلما ثبت عليها وتأيّد ، وتأنل فيها وعمر ، نظر إلى
معروفها فاعتبر ، وهجم على مجهولها فاستنكر ، فكأنه من
يومئذ حاد عن النهج الذى لا يخل ، ومرق من الهدى الذى
لا يتبدل » (١)

وهذا هو الموقف الفاصل في مسيرة الإنسان على هذه الأرض ،
ومرده إلى عقله « الذي نظر إني معروفها فاعتبر ، وهجم على
مجهولها فاستنكر » وحينئذ تاهت منه بوارق الهدى القديم ،
الذي كان يَمْضِي بنوره ، كما هو حال كل كائن غيره ، من
تلك التي بقيت ماضية على شريعة من غرائز النفوس لاتتبدل .

وقد وصفت الرسالة حالة الإنسان بعد ما تاهت منه هذه
البوارق وصفاً بليغاً جاء فيه « ابتلى من يومئذ فتمرس ، وأُسلِمَ
لمشيئته فتحيّر ، جار وعدل ، فعرف وجرب ، أخطأ وأصاب ، ففكر
وتدبّر ، نزع إلى النهج الأول ، فأخفق وأدرك ، تاق إلى الهدى
القديم ، فأعطى وحُرم ، احتفر ذخائر الفطرة ، فأكدت عليه تارة ،
ونبعت ، التمس شوارد الإتقان ، فنذّت عليه مرة ، واستقادت » (١).

وهكذا صار الإنسان في كَبَدٍ يتقاذفه اليأس والأمل ، ويضنيه النجاح
والفشل ، واحتمل همّاً شريفاً ، من ويلات كدّه ، نحو النبع الأول .

ثم إن إتقان العمل ، وأخذ النفس ورياضتها على طريقه
والمثابرة في ذلك ، هو في حقيقته سعي دائم ، نحو اكتشاف

(١) القوس العذراء ص ٢٤

الذات ، ورحلة جياشة ، تتوخى القبس الهادى ، الذى خبا فى
أعماق الإنسان ، وطمسه قلقه وتوقه ، إتقان العمل سعى نحو
المجهول داخل النفس ، وهتك أستاره ، وتمزيق حجبته ،
وبمقدار ما يحصل الإنسان من درجات الإتقان يكون قربه من
شاطيء الحقيقة الأزلية المطمورة فى داخل نفسه ، والتى ضلها
يوم قلق وحاد .

وهذا هو الوجه فى ربط قيمة كل امرئ بما يحسنه كما قال
على كرم الله وجهه ، فقيمة المرء فى تحقيق ذاته المنعكسه فى إتقان عمله .
« ولو دان الإنسان بالطاعة لفطرته المكنونة فيه منذ ولد ،
لأفضى إلى خبثها التليد إذا ما استوى نبتة واستحصد ، ولصار
كل عمل يتعمله تدريباً لما استعصى منه حتى يلين وينقاد ، وتهذيباً
لما تراكم فيه حتى يرف ويتوهج ، فإذا درّب عليه وصبر أزال
الثرى عن نبع منبثق ، فإذا ألح ولم يمل ، انشقت فطرته عن
فيض متدفق ، ويومئذ يسفر لعينيه مدبّ النهج الأول ، بعد
دروسه وعفائه ، ويستشرى فى بصيرته وميض الهدى المتقادم ،
بعد ركذته وخفائه » (١)

(١) القوس العذراء ص ٢٨

وهذه المعانى كما ترى غريبة مستورة ، لا أعرف أحداً
شق حجبها بهذا البيان . وأبرز مكنونها بهذه الدقة قبل هذه
الرسالة ، ومثل هذه المعانى التى تَقْتَنِصُ الخواطرُ الذكيةُ
شواردها ، لا تتلبس غالباً باللفظ المحكم ، والرصف المتقن ،
لأنها لما نزل نافرة عن الألفاظ ، والأمر هنا على خلاف ذلك .

والذين يعالجون صنعة البيان يقولون إنهم إذا أرادوا
العبارة عن معان مألوفة ، انسالت الألفاظ على أسنة أقلامهم ،
أما إذا وقعت فى أفئدتهم شوارد المعانى وأوابد الخواطر ،
والتمعت فى آفاقهم سوانحها ، فإنهم أحياناً يجدون ألسنتهم
فارغة من الألفاظ ، وكأن اللغة طُيرت منها فإذا قاربتهم
قاربتهم وهى أبيةٌ أرنة .

وهذا التفكير فى هذه المسألة حين يقارن بما يقوله أهل
النظر فيها يُرى حيويًا ، وعمليًا ، لأنه يجعل إتقان العمل
والدأب فيه طريقاً واصلاً إلى استنباط ودائع الفطرة ، وإثارة

كوامن الطاقات ، وتفجير ينابيع ثرة ، ومذخورة في النفس
يمكن أن تستفيض وتستبحر ، وبالعامل وحده ، وبالمثابرة
وحدها يكون التفوق ، ويكون إبداع روائع الأعمال في الفكر ،
والصناعة والأمر كله ، وبالمثابرة وحدها يمكن للمرء أن ينتقل
من طور من أطوار الفكر والعمل إلى طور آخر ، أسمى وأسمى ،
وقل مثل ذلك في الجماعات والأمم .

الفلاسفة لا يودعون أفكارهم حول هذه المسألة تلك الروح
العملية الخلاقة ، ثم إنهم وإن كانت طبيعتهم النظر المتعمق ،
لم ينفذوا إلى هذه الأبعاد التي رمى إليها الأستاذ شاكر ، من
حيث التدسس في غيب التاريخ ، والحديث حول الإنسان ،
وهو على مدب أقدامه الأول .

ونظرتهم تدور حول القول بأن الحيوان كله غير الإنسان
يعمل صنائعه بالإلهام ، والإنسان يتصرف بالاختيار ، وقد
منح الحيوان نصيباً ضئيلاً من الاختيار يُعينه على اضطراره ،
كما أن الإنسان رزق قدراً من الإلهام يُعينه على اختياره . وقوة

الاختيار فى الحيوان كالحلم ، كما أن قوة الإلهام فى الإنسان كالظل » (١)



العمل الذى هذا وصفه عمل مطلق غير مقيد بعلم ولا صناعة ، ولا فن ، وإنما هو كل ما يَنْفَصِمُ عن الإنسان مما أحكمه ، وهو على مدرجة سعيه الحثيث المستكشف لبوارق الهدى الأول يستوى فى ذلك أعمال الذهن ، وأعمال اليد ، وأعمال القلب ، فكلها لاتنفصم عن الإنسان الذى هذا خبره إلا وهى مصبوغة بأصباغ قلبه ، وموسومة بوسمه ، وهذا ما عهد الناس وصفه بالفنون . لأن الأشياء إنما تَتَشَحُّ بوشاح نفوس فاعليها إذا كانت تعبيراً عن لواجع هذه النفوس ، أما ما يعانيه الإنسان فى تدبير حياته ، وحياطة معيشته فليس من ذلك ، وإنما هو من العمل .

وقد أوجزت الرسالة طبيعة الفرق بينهما - كما يتصوره الناس - فى صورة سؤال يرد عليها حيث لم تفرق بينهما ، وإنما

(١) ينظر الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ١٤٥ بتصرف .

جعلت الإنسان مفتوناً بكل ما ينقسم عنه ، لأنه أفنى فيه
ضراماً من قلبه .

يقول الأستاذ « فلقد خشيتُ أن تقول لى : إنما أنت تحدثنى
عن الفن ، فهذه صفة أهله ، لاعن العمل ، فليس هذا من نعته !
وكأنى بك قد قلت : إن الفن ترف مستحدث ، أما العمل فشقاء
متقادم . هذا مما تعجله الإنسان وعاناه لقضاء حاجته ، وذاك
مما تأنى فيه وصافاه للاستمتاع بلذته ، والإنسان إذا جود
العمل ، فتمتئى همه أن يجعله على قضاء مآربه أعون ، أو يكون
له فى أسباب معيشته أنجح وأربح ، أما الفن ، فثمرة لغير
شجرته ، يسقيها مُتَأَنِّقٌ من ينابيع ثرّة فى وجدانه ، ويُنْضِجُها
مشفوفٌ بلاعج من وجده وافتتانه ، فى غير مخافة مرهوبة ،
ولامَنَفَعَةٍ مجلوبة ، فذاك إذن بطبيعته مستهلك مُتَمَتِّعٌ ، وهذا
لِحُرْمَةِ نشأته مذخور مكرم » (١) .

وهذا البيان الذى ترى ، لا أحسبه جرى فى زماننا مع أحد
كما جرى مع هذا القلم ، ولا أحسب هذه اللغة الشريفة كشفت

عن جوهرها الشريف لواحد من أهل زماننا كما كشفت عن جوهرها الشريف لهذا العالم الجليل ، لما رآته حفيأً بها أنبل ما تكون الحفاوة ، وفيأً لها أكمل ما يكون الوفاء .

أما جواب هذا السؤال فهو أن وضع العمل هذا الموضع ، وربطه بالنفس الإنسانية على هذا النحو ، إنما هو أمر كان يُعد فوق الإنسان عن تالد فطرته ، وانسلاخه من ركاز جبلته .

أما الإنسان الذى يكون صقله للأشياء وصبره على تخليصها وتقويم عوجها ، صبراً على تخلص جوهره هو ، وإزالة لما تراكم على نبعه فالعمل والفن عنده سواء لأن كلاً منهما « لا يُفصم عنه حين يُفصم ، إلا مطوياً على حشاشة من سر نفسه وحياته ، موسوماً بلوعة مُتَضَرِّمة ، على صَبْوة فَنِيت في عشرته ومعاناته » (١)



ورأس الأمر عندنا في هذه الرسالة أنها رجعت هذه الأفكار الحديثة جداً إلى صورة جرت في شعر الشماخ ، وهو أوصف

الشعراء'الحمير الوحش حتى قال عنه الوليد بن عبد الملك ، وقد سمع شعره فيها « إني لأحسب أحد أبويه كان حماراً » وذلك لمعرفته الدقيقة بطباعها ، وإبانة بيانه عن نوازعها ، وأهوائها ، وقد ذكروا في خبره أيضاً أنه أرجز الشعراء على بديهة ، وأنه أوصفهم لقوس ، فموضوع العمل والفن ، واتفاقهما في طبيعة ممارسة الإنسان لكل منهما ، وأن العمل « في إرث طبيعته فن متمكن ، والإنسان بسليقة فطرته فنان معرق » يبدو بعيداً عن أفق شاعر هذا خبره .

وقد استخرج الأستاذ شاكر صورة حية لأفكاره هذه من أبيات في قصيدة الشماخ

عَفَا بَطْنُ قَوْ مِنْ سُلَيْمَى فَعَالِزُ

فَذَاتُ الْفَضَا فَالْمُشْرِفَاتُ النَوَاشِرُ

وقد شبه الشاعر راحلته في هذه القصيدة بحمار الوحش وذكر قصته مع أتنه في مرعاه ، وفي مَطلبه للماء ، وجرى لسان الشماخ مع حمار الوحش وأتنه ، وهو يطلب لها مواقع الماء ، بعد ما طوى ظمئها في بيضة القيظ (١) ، وقد أحسن

(١) طوى ظمئها : زاد في عطشها : وبيضة القيظ : شدة الحر :

وصف حالها ، وقلقها ، ومورانها ، وانغَلَّ حتى رأى بعيونها ،
واندس حتى أبان عن (راجفات الحذر)

ومن بين مذكره من الصور صورة رام لايداوى رَمِيهِ
مُتَنَكِّبٌ قوساً ، أتقن القوَّاس صُنْعُهَا ، وصَبِرَ عليها حتى قضاه
حق إحسانها ، وقد ذكر الشماخ قِصَّةَ القوَّاس مع القوس ،
مبتدئاً من اختياره لفرعها الذى نَمَى فى كن سائر حماها
العيون فأخطأَتْهَا ، وكيف عكف هذا الرجل على هذا الفرع
فوضعه فى الشمس عامين حتى شرب ماءً لحائه ، ثم أقام عِوَجَهُ ،
بالثَّقَاف ، والطَّرِيدَةِ ، حتى لَانَ ، ثم أعدَّ له وترأ كالشعاع
حُرّاً « على أربع قد قُتِلَ » ثم ألبسها حَبيراً يصونها من الندى .
فلما وافى بها أهل المواسم رآها بِبَيْعٍ أَغْلَى لها السَّوْمُ فطلبها بإزار
شرعبيٍّ من أجود الثياب ، وأربع من السيرا أى الثياب المخططة ،
وأواق من الذهب « ثمان من الكورى حُمِرَ كأنها الجمر » .
« وبردان من خال » ، « وتسعون درهماً » ...

ولكن هذا الثمن الربيع ، لم يدفع القوَّاس إلى إنجاز البيع
لأن هذه القوس بعض منه ، لم تنفصل عنه إلا بعد ما أفنى

فيها ضرماً من نفسه ، وبعد ما صارت موسومة بلوعة متضرمة
فَنِيَتْ في عَشْرَتِهَا كما يقول الأستاذ .. ولهذا أَمَر نفسه :

« أَيَأْنِي الذي يُعْطَى بها أُم يُجَاوِزُ » ... والناس من حوله قد
أَذْهَلَهُمْ هذا الثمن فقالوا له : بايع أَخاك .
فلما شراها فاضت العينُ عِبْرَةً

وفي الصَّدْرِ حَزَازٌ من الوجدِ حامِزٌ

ودونك هذه الأبيات :

١- فَحَلَّاهَا عن ذى الأَرَاكَةِ عامِراً

أَخُو الخُضْرِ ، يَرْمِي حيثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ

٢- قَلِيلِ التَّلَادِ ، غيرَ قَوْسٍ وَأَسْهَمٍ

كَأَنَّ الذي يرمى من الوحش ، تَارِزُ

٣- مُطَلَّأً بِزُرْقٍ ما يُدَاوِي رَمِيَّهَا

وصفراء من نَبْعٍ عليها الجلائِزُ

(١) حلَّاهَا : منعها . ذو الأَرَاكَةِ : موضع ماء . الخضر : قبيلة منها

عامر الرامي : النواحي : داء يصيب الحيوان في رثته فيكوى في جنبه فيشفي ؟

(٢) التلاد : المال القديم الموروث . التارز : الذي ييس في مكانه ومات ؟

(٣) الزرق : السهام شديدة البياض . النبع : شجر تتخذ منه القسي ؟

الجلائز : عصب يلوى على القوس ليشدها .

٤- تَخِيرُهَا الْقَوَاسُ مِنْ فَرَعِ ضَالَةٍ
لَهَا شَذْبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَوَاجِزُ

٥- نَمَتَ فِي مَكَانٍ كَنَّهَا، فَاسْتَوَتْ بِهِ
فَمَا دُونِهَا مِنْ غِيلِهَا مُتَلَا حِزُ

٦- فَمَا زَالَ يَنْجُو كُلُّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ
وَيَنْغَلُ .. حَتَّى نَالَهَا وَهُوَ بَارِزُ

٧- فَأَنَحَى عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ ، غُرَابُهَا
عَدُوٌّ لَأَوَسَاطِ الْعِضَاهِ مَشَارِزُ

٨- فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ فِي يَدَيْهِ .. رَأَى غِيَّ
أَحَاطَ بِهِ ، وَازْوَرَّ عَمَّنْ يُحَاوِزُ

(٤) الضال : شجر تتخذ منه السهام كالنزع : الشذب : الأغصان
المتهدلة من الشجرة :

(٥) كنها : سترها في كن : الغيل : للشجر الملتف : المتلاحز :
المتضايق :

(٦) ينجو : يقطع : انغل : دخل في شيء متلاحم على مشقة : بارز :
ظاهر للشمس .

(٧) أنحى عليها : قصد وأقبل : غراب الفأس : حددا : العضاه :
شجر عظيم ذو شوك : المشارز : الشرس :

(٨) ازور : مال وأعرض : يحاوز : يخالط :

٩ - فَمَطَّعَهَا عامين ماء لِحَائِهَا
وَيَنْظُرُ مِنْهَا : أَيُّهَا هُوَ غَامِزُ

١٠ - أَقَامَ الثَّقَافُ وَالطَّرِيدَةُ دَرَّأَهَا
كَمَا قَوَّمتَ ضِغْنِ الشَّمُوسِ الْمَهَامِزُ

١١ - وَذَاقَ .. فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللَّيْنِ جَانِبًا
كَفَى - وَلَهَا أَنْ يُغْرَقَ السَّهْمَ حَاجِزُ

١٢ - إِذَا أَنْبَضَ الرَامُونَ عَنْهَا، تَرَنَّمَتْ
تَرَنَّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الْجَنَائِزُ

-
- (٩) مَطَّعَهَا : وضعها في الشمس لتشرب ماء لحائها : أي قشرها :
- (١٠) الثَّقَافُ : خشبة في طرفها خرق يتسع للقوس فتدخل فيها وتغمر حتى تسوى . والطَّرِيدَةُ : قصبة مجوفة خشنة الجوف تدخل فيها القوس لتبرى قشرتها . الدَّرءُ : العوج . الشَّمُوسُ : القوس القصيبة . المهامز : جمع مهاز تنخس به الدواب لتستقيم ، وتقويم ضغنها : تأديبها حتى يلين قيادها :
- (١١) ذَاقَ : جذبها ليختبرها : واغراق السهم : أن تستوفي جذبها فتلين فربما قطع السهم يد الرامي ، يقول : لها حاجز من القوة والصلابة يمنع لينها أن يبلغ بها للرامي إلى إغراق السهم .
- (١٢) أَنْبَضَ القوس : جذب وترها ، والجنائز : الموتي :

١٣- هَتُوفٌ .. إِذَا مَا خَالَطَ الطَّبِي سَهْمُهَا

وإن ربيعَ مِنْهَا أَسْلَمَتْهُ النَّوَاقِزُ

١٤- كَأَنَّ عَلَيْهَا زَعْفَرَانًا تُمِيرُهُ

خَوَازِنُ عِطَّارٍ يَمَانٍ كَوَانِيزُ

١٥- إِذَا سَقَطَ الْأَنْدَاءُ، صَبَيْتَ وَأَشْعِرْتَ

حَبِيرًا ، وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيْهَا الْمَعَاوِزُ

١٦- فَوَافِي بِهَا أَهْلَ الْمَوَاسِمِ فَانْبَرَى

لَهَا بَيْعٌ يُغْلَى بِهَا السَّوْمَ رَائِيزُ

١٧- فَقَالَ لَهُ : هَلْ تَشْتَرِيهَا ؟ ! فَإِنَّهَا

تُبَاعَ بِمَا بَيْعَ التَّلَادِ الْحَرَائِيزُ

(١٣) هتوف : لها صوت : ربيع : دعر : والنواقر : القوائم :

(١٤) الزعفران : طيب أصفر : تميره : تصب فيه الماء لتذيبه :

الخوازن : النساء اللاتي يخزن : والكوانز : اللاتي يكنزن :

(١٥) الأنداء : جمع ندى . أشعرت : ألبست . الحبير : ثوب من

الحرير الناعم : والمعاوز : الثياب الخلقة يلبسها المساكين : لم تدرج : لم تطو عليها .

(١٦) أهل المواسم : مجامع الناس في زمن الحج : الرائز : المختبر :

(١٧) التلاد : المال القديم الموروث . الحرائز : التي تمحز ولا تباع

لنفاسها .

١٨- فقال : إِزَارٌ شَرْعَبِيٌّ ، وَأَرْبَعُ

من السِّبْرَاءِ ، أَوْ أَوَاقٍ نَوَاجِزُ

١٩- ثَمَانٍ مِنَ الْكُورِيِّ ، حُمْرٌ كَأَنَّهَا

من الْجَمْرِ مَا أَذْكَى عَلَى النَّارِ خَابِزُ

٢٠- وَبُرْدَانٍ مِنْ خَالٍ وَتَسْعُونَ دِرْهَمًا

عَلَى ذَلِكَ مَقْرُوظٌ مِنْ الْجِلْدِ مَاعِزُ

٢١- فَظَلَّ يَنْجِي نَفْسَهُ وَأَمِيرَهَا

أَيَّائِي الَّذِي يُعْطَى بِهَا أَمْ يُجَاوِزُ

٢٢- فَقَالُوا لَهُ : بَايَعُ أَخَاكَ.. وَلَا يَكُنْ

لَكَ الْيَوْمَ عَنْ رِيحٍ مِنَ الْبَيْعِ لَاهِزُ

(١٨) الشرعبي: من أجود الثياب وأغلاها. والسبرا: ثياب مخططة نفيسة؛
وللنواجز: حاضرة غير مؤجلة .

(١٩) الكوري: منسوب إلى كور الصنائع يعني ذهباً مصوغاً ؛

(٢٠) الخال: موضع تصنع فيه الثياب النفيسة ، على ذاك : أي مع ذلك ، والمقروط: المدبوغ بالقرظ ، والماعز: جلد الماعز وهو من أجودها .

(٢١) أميرها: الذي يؤامره ويشاوره . يجاوز: يتركه ويمضي ؛

(٢٢) اللاهز: المانع .

٢٣- فلما شراها فاضت العين عبرةً

وفي الصدر حزاً من الوجد حامزاً

الصورة هنا مثال واضح للأفكار التي ساقها الأستاذ حول إتقان العمل ، وكان الشماخ ممن يتقنون صنعة الشعر ويفنون فيها ضراماً من قلوبهم ، وهذا نفس من أنفاسه الصابرة .

ولم تعد أبيات الشماخ هذه كغيرها من الشعر الذي لانرى فيه إلا وصف الفلاة ، وحياتها ، وإنما هزتها عقلية حية ، فاستخرجت منها هذا الفكر الحى ، وكشفت منها عن هذا الجوهر النفيس ، وشمخ بها الشماخ على عظماء الشعر ممن استلهموا الهياكل المقدسة كما قال الأستاذ عادل الغضبان .



جعل الأستاذ شاكر هذه الأبيات موضوعاً لقصيدة رائعة

فذة ، تعد من فرائد هذا العصر ، نشر فيها ماطواه الشماخ وأضممره ، وفصل وأضاف ، وأكمل ، حتى صارت هذه القصيدة أحفل وأشمل .

(٢٣) شراها : باعها . وحزاز : قاطع يحز حزاً شديداً : والوجد :

أشد الحب ، حامز : ممض محرق :

« معاني المفردات مقتبسة من القوس العذراء »

وأبيات الشماخ ثلاثة وعشرون بيتاً ، والشعر الذى
استخرجه الأستاذ منها مائتان وتسعون بيتاً ، منها سبعة وثلاثون
كانت كالمقدمة . عرض فيها خبرَ عامِرٍ أخى الخُضِرُ . وحكاية
القوَّاس الذى ابتاع منه قوسه ، وتناول كل جزئية من الجزئيات
التي جاءت فى كلام الشماخ بطريقة مفصلة .

وقد بُنِيَتْ هذه القصيدة على أسلوب الاستفهام الذى لا يرى
بالمعانى فى النفوس ، وإنما يَحُثُّ على استخراجها ويثير ويشوق .
وكلمة الاستفهام التى جرت فى الأبيات هى كلمة
« كيف » التى تبعث الخواطر الداعية إلى معرفة الحال ، فى
كل حدث تناولته جملتها ، وهى مناسبة لحديث اتقان العمل ،
وطريقة تناوله والاستغراق فيه ، حتى يصير المعمول جزءاً من
العامل ، وقد أحاط هذا الاستفهام بكل ماعالج القوَّاس واعتمل
له ، وكان الاستفهام مشوباً بالتعجب والاستعظام فعظم وقعه .
واقراً هذه الأبيات :

« فدع الشَّماخ يُنبئُك عن قوَّاسها البائسِ فى حيث أتاها :

أَيْنَ كَانَتْ فِي ضَمِيرِ الْغَيْبِ مِنْ غِيلٍ نَمَاهَا ؟ (١)
 كَيْفَ شَقَّتْ عَيْنُهُ الْحُجْبَ إِلَيْهَا ، فَاجْتَبَاهَا ؟
 كَيْفَ يَنْغَلُّ إِلَيْهَا فِي حَشَا عَيْصٍ وَقَاهَا ؟ (٢)
 كَيْفَ أَنْحَى نَحْوَهَا مِبراته ، حَتَّى اخْتَلَاهَا ؟ (٣)
 كَيْفَ قَرَّتْ فِي يَدَيْهِ ، وَاطْمَأْنَنْتْ لِفَتَاهَا ؟
 كَيْفَ يَسْتَوِدُّهَا الشَّمْسُ عَامِينَ .. تَرَاهُ وَيَرَاهَا ؟
 كَيْفَ ذَاقَ الْبُؤْسَ .. حَتَّى شَرِبَتْ مَاءَ لِحَاهَا ؟ » .

وهكذا استمرت القصيدة تتناول الأحوال ، والمراحل ، إلى
 أَنْ باعها .

« وَرَأَى كَفَّيْهِ صِغْرًا ، وَرَأَى الْمَالَ ... فَتَاهَا
 لَمَحَةً .. ، ثُمَّ تَجَلَّى الشُّكُّ عَنْهُ ... فَبَكَاهَا !
 وَرثَاهَا بدموعٍ ، وَيَحَهُ ! كَيْفَ رثَاهَا
 فَتَوَلَّى .. وَسَعِيرُ النَّارِ يُخْفِي وَلَظَاهَا
 حَسْرَةً تُطَوَّى عَلَى أُخْرَى ، فَأَغْضَى .. وَطَوَاهَا » .

-
- (١) الغيل : الشجر الكثير الملتف : ونماها : نسبها .
 (٢) العيص : الشجر النابت بعضه في أصول بعض :
 (٣) مبراته : فأسه ، واختلاها : قطعها .

وهذه الأبيات لم تتجاوز خبر عامر وإنما وُصِّحت وأُعدت صياغته على الحد الذي تراه فيها .

أما ما أثارته أبيات الشماخ من صور ومعان فقد جاء ذلك في القصيدة الأم .

وقد نبه الأستاذ إلى ذلك الفرق الدقيق بين هذه القصيدة التي قلنا إنها كمقدمة ، والقصيدة الأصلية التي هي « القوس العذراء » .

فقال في الأولى بعد ما أوجز خبر عامر في كلام جامع متقن قال فيه « هذا عامر أخو الخُضر ، تَوَجَّسَتْ به الوحش من عرفانها شدة نِقْمته ، جاءت ظامئةٌ في بَيْضَةِ الصيف ، فَرَاَعَهَا مَجْتَمُهُ في قُتْرته ، قليلُ التلاد ، غير قوس وأسهم ، خَفِيَ المِهَاد ، غير مُقْلَةٍ تنزُرم . تَبَيَّنَتْ لَمَحَ عَيْنَيْهِ ، فانقلبت عن شريعة الماء هاربة ، ذكرت نكاية مرماه فأثرت ميتة الظمأ على فتكة الأسهم الصائبة » (١) .

أقول : قال بعد هذا الكلام الذي يبعث به أنغام سليقته العربية الخالصة الشريفة ، والذي لا يصفه لك أحد وصف

(١) القوس العذراء ص ٣٠

نفسك له إذا أحكمت مراجعته ، وأطلت التوسم فيه ، قال :
« وما عامر وخبره » ثم بدأ الأبيات .

وقال بعد فراغه من هذه الأبيات « فاسمع إذن صدى
صوت الشماخ » فأبان هذا مع النظر في القصيدتين أن الأولى
تروى خبراً ، والثانية تروى صدى أبيات الشماخ ، وما أثارته
من معان وصور ، وأنغام ، وأحداث .

وقد قسم الأستاذ محمود شاكر أبيات الشماخ الثلاثة
والعشرين إلى ثمانية أجزاء تمثل ثمانية مواقف ، أتبع كل قسم
منها بجملة أبيات من قصيدته تمثل صدى هذا الموقف .

ففي القسم الأول : وصف الشماخُ عامراً الرامي في ثلاثة أبيات
« فحلاًها عن ذى الأراكة عامر » ، والبيتين بعده ،

وكان صدى هذه الأبيات الثلاثة : عشرة أبيات

والقسم الثانى : يشمل الأبيات التى تصف اختيار القوأس
لغصنها ، واعتماله فى الوصول إلى هذا الغُصنِ ، وعدد أبياته
خمسة أبيات . وجاء صداه فى سبعة عشر بيتاً .

والقسم الثالث : ذكر بيتين فقط للشماخ ، يصفان ثقافَهُ
لهذا الغصن ، والأبيات التي هي صدى هذين البيتين عددها
سنة عشر بيتاً ..

والقسم الرابع : ثلاثة أبيات صار فيها الغصن قوساً يرمى به
الرامي ، فلا يُخطئ رميّه ، وعدد أبياته ثلاثة أبيات ،
وصداها عشرون بيتاً .

والقسم الخامس : بيتان يصفان عناية القوَّاس بالقوس
ومحافظته عليها ، وجاء صداهما في ثمانية أبيات .

والقسم السادس : خمسة أبيات تصف رحلة القوَّاس
بقوسه إلى موسم الحج ، ورؤية البَيْع الذي أغلى لها السوم
وجاء صداها في ثلاثة وستين بيتاً .

والقسم السابع : بيتان يصفان تردد القوَّاس في البيع مع
أن الثمن ربيع ، وموقف أهل الموسم منه ، وحشهم إياه على
البيع ، وقد جاء صداها في ست وثلاثين بيتاً .

والقسم الثامن : بيت واحد ، يصف ما وجدته القوَّاس بعد
بيعه وقد جاء صداها في خمسة وسبعين بيتاً .

وهذا التقسيم وما يقابله يوضح المعانى والأحوال التى مدت
فيها القصيدة نفس الشعر ، وأرخت عنانه .

وواضح أن البيت الأخير الذى هو :

فلما شراها فاضت العين عبرةً

وفى النفس حزازٌ من الوجدِ حامزُ

أثار ما لم يثره غيره من أصدقاء ، وأنغام ، وأحوال ، وهو
يمثل الموضوع لأنه وصف لواجع القوأس بعد ما باع قوسه
بشمن لا يُباع مثلها بمثله .

وقد استفتحت هذه القصيدة بثلاثة أبيات جاءت في
وصف الشعر الجاهلى ، وإن كانت في سياق الكلام عن
شعر الشماخ ، وهى أبيات حسنة جداً ، وفيها إماعة إلى ما يتميز
به من بين أشعار الناس كافة ، من حيث هو أقدم شعر يُقرأ
الآن بلفظه ونظمه ، ونغمه الذى وجد عليه منذ أكثر من
خمسة عشر قرناً ، ثم هو مع ذلك لا يشتبه علينا شيئاً فيه ،
ويحفظه المبتدئون ولا يجدون منه نفرة ، بل إن أوزانه ،
وأنغامه لتعينهم على حفظه .

قال : «تجاوب عنه كهؤف القرون، ترددٌ فيها كأنَّ لم يزلْ
وأوفى على القممِ الشامخاتِ : جبالٌ من الشعر منها استهلَّ
تحدَّرَ أنغامُهُ المرسلاتُ ، أنغامَ سَيْل طغى واحتفل » .

وأنبه هُنا إلى شيء لا يحتاج إدراكه إلى فضل نظر، وهو
خلل ترتيب أبيات قوس الشماخ في نشرة ديوانه التي بين
أيدينا فقد جاء قوله « فوافى بها أهل المواسم » وما بعده إلى
قوله « وفي الصدر حَزَّازٌ من الوجد حامز » بعد قوله « أقام
الثِّقافُ والطريدةُ درأها » ثم جاء قوله « وذاق فأعطته من
اللين جانباً » والأبيات الأربعة التي تليه ، بعد قوله « وفي الصدر
حَزَّازٌ من الوجد حامز » وهى موصولة بتقييد القوس وإعدادها
الذى كان قبل موافاة أهل المواسم بها ، وهذا واضح .

والبيت الأخير من أبيات الشماخ

فلما شراها فاضت العين عبْرَةً

وفي الصدر حَزَّازٌ من الوجد حامزُ

علقت عليه القصيدة خمسة وسبعين بيتاً كما قدمنا ،
وترى فيها كيف مدَّ الشعر المعانى ونمَّأها ، وكيف حلَّل الخواطر

وفصلها ؟ وبسط الصُّورَ وأثراها ؟ والأهم من ذلك كله كيف
جعل الكاتبُ قلبه نبعاً لها ؟ وكيف تولدت في نفسه واتَّسَعَتْ ؟
وكيف أَحَسَّ لوعة القوَّاس إحساساً جعل كلماته تنقد بلوعته ،
اقرأ هذه الأبيات :

« وفاضت دموعُ كمثل الحميم ، لذاعةُ نارها تستهِّل
بُكاءٍ من الجمرِ جمرِ القلوب ، أرسلها لاعجٍ من خَبَلٍ
وغامت بعَيْنَيْه ، واستنزفت دم القلب يَهْطِلُ فيها هَظَلٌ
وخانِقةٌ ذبحت صَوْتَه ، وهيض اللسانُ لها واعتُقل »

وقد تتابعت الأبيات تشرح ما في صدر القوَّاس من حَزَّازٍ
من الوجد حامز ، فوصفته وهو مُغضٍ مطرق ، أثقلته هموم
أذهلته ، وأعادت إليه صورة لحظة الأسى الذى كربه ، وهى
لحظة البيع بغمغماتها ، وتزاحمها ، واضطرابها ، وقد صَوَّرت
الأبيات هذا الموقف تصويراً حياً حافلاً ، وهو فى كلام الشماخ
إيماءة أشار إليها بقوله :

فقالوا له : بايع أخاك ولا يكن

لك اليوم عن ربح من البيع لاهزُ

وقد استمدت « القوس العذراء » من هذا البيت خيوطاً كثيرة
نسجت مواقف متكاملة ، صور الشعر فيها خواطر الحيرة
والمنازعة ، والتردد تصويراً حافلاً بليغاً .

ولنسمع كيف صور الشعر لحظة ذهول القوَّاس ، وتواثب
همومه التي أغارت عليه ، وأعادت إلى نفسه الصور
مرة ثانية :

« وأغضى على ذلَّةٍ مُطرِقاً ، عليه من الهمِّ مثل الجبل
أقام .. وما إن به من حراك ، تخاذلُ أعضاؤه كالأثل (١)
وفى أذنيه ضجيجُ الزَّحَامِ ، و « بع باع ، بع باع ، بع
يارجل ! »

وأخلدَ من حيث طار السَّوامُ بمهجته ، كَمَارُومٍ مَثَلُ (٢)
ثم تعود الصورة إليه بضجيجها ، وزحامها :
« ومن حوله الناس مثل الدُّبِّ عجالاً تنزى ، دَهَاهُنَّ طَلَّ

(١) الأثل : الذى أصيب بالشلل :
(٢) السوام : المساومة فى البيع : والأروم : أصل للشجرة إذا ماتت .
ومثل : نصب وقام :

فمن قائل : فاز .. ردَّت عليه قائلة : لئنه ما فعل !

ومن هامسٍ : ويحه مادهاه ! ومن منكِرٍ : كيف يبكي الرجل
وهكذا يتابع وصف هذه الأحوال إلى أن تنسأل هذه
الجموع وتموت أصواتها ، في أبيات حافلة جداً بصور واضحة ،
ومشاهد كاملة ، تسمع فيها الجهر ، والهمس ، والغممة ، وترى
فيها الحركة الواضحة ، والغمزة الساخرة ، والنغضة المستخفة .
ولما أفاق رأى الجموع ذاهبة فانكشفت الصحراء من
ورائهم فرأى أغربتها ، وحياتها ، وضباها ، وضبابها ، وصورت
القصيدة ذلك ، في صورة لاتنقصها شية من الشيات التي تجدها
عند شعرائنا الأوائل الذين برعوا في وصف المفاوز .

ولتقرأ هذه الأبيات :

«رَأَى الْأَرْضَ تَمْشِي بِهِم كَالْخِيَالِ، أَشْبَاهُهُمْ خُشْبٌ تَنْتَقِلُ
وَهَامٌ مُحَلَّقَةٌ رُجْفٌ ، وَأُخْرَى بَدَتْ كَتَزْيَعِ الْبَصْلِ (١)
وَأَغْرِبَةٌ : بَعْضُهَا جَائِمٌ يَحْرُكُ رَأْسًا ، وَبَعْضُ حَجَلٍ

(١) الهام : الرؤوس : الرجف : جمع راجف وهي التي ترتجف
وتضطرب : ونزيع البصل : منزوعه :

وحياتُ وادٍ ، لِشَمْسِ الضُّحَى تُلَوَّى حيازيمها والقللُ (١)

وأزفلةٌ من ضباعِ الفلاة تخمَع من حول قتلى هَمَل (٢)

وهنا وهنا ضِبابٌ مَرَقْن من كُلِّ جُحْرٍ كَسِيلٍ حَفَلٌ »

تأمل تصوير الأعرية الجاثم منها وما حجل ، وتصوير
الحيات التي تلوى حيازيمها ، وجماعات الضباع تعرج حول
القتلى المهملين ، وحركة الضباب المارقة هنا ، وهناك ، وسط
السيول المنهمر .

وقد وصفت الأبيات بعد ذلك حال القوَّاس ، وهو يفتق
من ذهوله ووصفاً تغلغل بين همومه المتشاقلة ، ولامس نفسه ،
وهو في حضيض مهواة سحيقة المدى تدب إليه الإفاقة في تشاقل
شديد .

وظل الشعر في هذا الموقف يحلل ويفصِّل ، ويُلمُّ بكل
هاجسة وسانحة ، حتى انتهى بهذا القوَّاس إلى اللحظة التي لمح
فيها فرعاً صالحاً ، من شجر الضال ، يمكن أن يُبدع منه بيديه

(١) الحيازيم جمع حيزوم وهو ما اكتنفت الحلقوم ، والقلل : الرؤوس .

(٢) الأزفلة الجماعة تأتي مسرعة ، وتخمع : تعرج :

اللتين حَبَاهُ بهما فاطرُ النيرَاتِ قَوْساً ثَانِيَةً كهذه ، وبذلك فُرْجُ
كربه :

« وَشَقَّتْ لَهُ السُّدْفَ الغَاشِيَاتِ حَسَنَاءُ ضَالٍ عَلَيْهَا الحُلَلُ »

« أَضَاءَ الظَّلَامُ لَهَا بَغْتَةً ، وَقَوَّضَ خِيَمَتَهُ وَارْتَحَلَ »

أَطَلَّتْ لَهُ مِنْ خِلَالِ الغُصُونِ عِذْرَاءٌ مَكْنُونَةٌ لَمْ تُنَلَّ »

* * *

لم يستلهم الأستاذ شاعر أبيات الشماخ ودقائقها وهي
تأمة منه ، مكتفياً بفحواها العام ، وإنما كانت له معها مسالك
مدروسة ومداخل تصل إلى الرحاب الفسيحة .

من ذلك أن الشماخ ذكر أن هذه القوس لما أتمَّ القوَّاسُ
صنعها صينت ، وأُشْعِرَتْ حَبِيرًا أَيْ أُدْرِجَتْ فِي ثِيَابِ الحَرِيرِ ،
ثم ذكر الشماخ بعد ذلك رحلة القوَّاس بها إلى أهل المواسم ،
وَتَنَفَّذَ القوس العذراء فتكشف المسافة التي طواها الشماخ بين
إتمام صنع القوس ، والرحلة بها إلى مواسم الحج ، فينشر منها
صفحة رائعة ، عاشها القوَّاس ، وهو متنكب قوسه ، يراها
على بؤسه جَنَّةً ، ويصاحبها في هجير القِفَار ، ويجوب بها

أهوال أرض آبائه ، يُحَدِّثُهَا عَنْ أَيَّامِهِمْ ، وَدُوكَلَهُمُ الَّتِي قَامَتْ
عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَهُوَ مُنْتَشِرٌ نَشْوَةٌ مَشْوِبَةٌ بِالْأَسَى ، وَبِالثَّقَةِ
وَالْأَمَلِ ، وَالْحِكْمَةِ .

وهذا الجزء من أروع روائع هذه القصيدة .

ولحديث الأستاذ شاكر رنة خاصة ، ذات دلالات عميقة
حين يتكلم عن أمته ، وحضارتها ، وتاريخها ، وله معرفة
متميزة بهذا التاريخ ، وله تصوره الخاص المتفرد لأحوال هذه
الأمّة يهداها ، وضلالها ، وعدلها ، وبغيها .

ولتقرأ هذه الأبيات التي نشرت ما طواه الشماخ :

« فَيَحْرُسُهَا وَهُوَ فِي أَمْنَةٍ ، وَتَحْرُسُهُ فِي غَوَاشِي الْوَجَلِ
يَجُوبُ الْوَهَادَ ، وَيَعْلُو النِّجَادَ ، وَيَأْوِي الْكَهُوفَ ، وَيَرْقَى
الْقُلُلَ

وَيُفْضِي إِلَى مُسْتَقَرِّ الْحَتُوفِ : فِي دَارِ نَمْرِ ، وَذَنْبٍ ، وَصِلْ
مَنَازِلَ عَادٍ ، وَأَشْقَى ثَمُودَ ، وَحَمِيرَ ، وَالبَائِدَاتُ الْأَوَّلُ
مَجَاهِلُ مَا إِنَّهَا مِنْ أَنْبَسَ ، وَلَا رَسْمٍ دَارٍ يَرَى أَوْ ظَلَّلُ
يُعَلِّمُهَا كَيْفَ كَانَ الزَّمَانُ ، وَمَجْدُ الْقَدِيمِ ، وَكَيْفَ انْتَقَلَ

وكيف تساقى بها الأولونَ رحيقَ الحياة وخمرَ الأملِ
وأين الأَخِلَاءُ كانوا بها يجرون ذيلَ الهوى والغزلِ
ومَلِكُ تعالى ، وطاقِ عتا ، وحرُّ أبى ، وحريصُ غفلٍ »

انظر إلى تصوير ما رآته عينه في الخرائب والمجاهل وهو
في حال النشوة ، والشعور بالقوة ، والجسارة ، رأى مجداً ،
وعزاً ، وتاريخاً ، ولما باعها ، وأطبق عليه الهم رأى في هذه
الخرائب أغربة بعضها جائم ، وبعض حجل ، وحيات تُلو
حيازيمها ، وكانت الصحراء هناك مشهداً يتزاحم بالأهوال ،
وهى هنا صفحة من تاريخ مجيد .

وللأستاذ شاكر قدرة عجيبة على تركيز المعاني في ألفاظ
قلائل حتى لترى الكلمة الواحدة ، ترمى بفيض من المعاني ،
والصور ، والأحداث ، والأحوال :

تأمل قوله :

ومَلِكُ تعالى ، وطاقِ عتا ، وحرُّ أبى ، وحريصُ غفلٍ
ولله هذا الحر الذى أبى .



ويتميز أسلوب الأستاذ شاكر بالعروبة التّقىة ، المتّقنة المصقولة ، ترى في كلماته أنفةً ، وعِزَّةً ، وشموخاً ، وتراها تجري في بيانه وهي حفية به ، لأنّه أجراها على سليقتها ، واستخرج منها زهوها ، وبهاؤها ، وشرف بيانها ، وجلال نغمتها ، وحكمة دلالتها .

وقد ذكر أبو حيان أنّ الكلام صلف تيّاه ، وأنّ له زهواً كزهو الملوك ، وخفّقاً كخفق البرق (١)

ولاريب أنّ هذا الصلف ، وهذا الزهو، وهذا الخفق ، لا يستخرجه من الكلام كل من يرومه . وإنّما يستخرجه من كان بين أهل البيان أشبه بالملوك بين الناس .

وصقل اللغة ، وبهاؤها يرى في لغة الأستاذ شاكر نابعاً من المعنى ، إذ لا طريق إلى الإبانة عن هذا المعنى ، إلا بهذه اللغة ، وبهذا التقسيم ، وبهذا الإيقاع ، ومرجع ذلك إلى صقل المعاني ، والأفكار وتهذيبها ، وتحديددها ، ثم انبعاثها في نغمها ، وتقسيمها ، وتعليق بعضها على بعض ، على وجه خاص من وجوه التعليق .

(١) ينظر الإمتاع والمؤانسة ج ١ ص ٩

فليست هناك مراجعة للألفاظ ، وإنما هناك مراجعة للمعاني ،
وتعرف على دقائق شياتها ، ثم الوفاء بها في الإبانة عنها ، وهذا
هو الفرق بين فنون صَنَعَةِ الكلام حين تراها في الأساليب
المطبوعة كأسلوب الأستاذ شاكر ، وحين تراها في كلام المتكلمين ،
انظر إلى قوله ، وهو يصف الإنسان بعد ما حاد عن النهج
الذي لا يخل ، والهدى الذي لا يتبدل .

« فعندئذ حَاكَ الشكُّ في صدر اللاحق ، حتى قدح في تمام
صنع السابق ، فاستدرك عليه ، وقلق الوارثُ ، حتى خاف تقصير
الذاهبِ ، فاستنكفَ الإذعانَ إليه ، فكذلك جاشت نفسه ، حتى
اندفقت صُبَابَةً منها فيما يعمل ، وتضرَّم قلبه ، حتى ترك ميسمه
فيما أنشأ ، فتدلَّه بصنع يديه ، لأنه استودعه طائفةً من نفسه ،
وفُتِنَ بما استجدَّ منه ، لأنه ألقى فيه ضِراماً من قلبه ، وإذا هو
يَسْتَحِفُّ الزهو بما حاز منه وملك ، ويُضْنِيهِ الأسى عليه إذا
ضاع أو هلك » (١) انظر كيف أوقع « حتى » و « الفاء » و « الواو »
وعلق المعاني بعضها على بعض ، وأجرى نسيج الكلام على وجه دقيق .

(١) القوس العذراء ص ٢٤

و «حتى» هنا للغاية فهي تشير إلى أن ما بعدها نهاية ما قبلها ،
ثم تأتي الفاء مشيرة إلى أن ما بعدها مسبب عما قبلها ، ثم
يُعادُ هذا النسق ، بهذا الربط ، وهذا التعليق في الجملة الثالثة
« وقلقَ الوارث ... » ثم تكون الواو الداخلة على جملة « قلق
الوارث » عاطفة لجملة من الجمل التي تعلقت بها على جملة
الجمل التي سبقتها ، والتي نسقت من داخلها نسقاً كنسقها ،
وتأتي الفاء في قوله « فكذلك جاشت نفسه » للإشارة إلى أن
هذا المعنى الذي هو جيشان النفس وما بعده ، إنما يأتي مرتباً
على ما قبله الذي أساسه جملة « حاك الشك في صدر اللاحق »
لأنها هي الأصل الذي ارتبط به كل ما بعده ، ثم تجد لام
التعليل في قوله « لأنه استودعه » تتكرر وتتوازن في قوله
« لأنه أفنى » ثم تجد تناغى الأصوات في القاف في قوله « تمام
صنع السابق » مع قوله قبله « حاك الشك في صدر اللاحق »
وتتحدّر المعاني إلى قرارها مع كل فاصلة ، عند كلمة « إليه » ،
و « يديه » .

وهكذا كلما أمعنت وجدت ضرورياً من صنعة البيان الشريفة
تزهو به عروبة اللسان ، ويتهادى نغمه الجليل .

واقراً قوله في الإنسان:

« أبتلى من يومئذٍ فتمرس ، وأسلمَ لمشيئته فتحيّر ، جار وعدل ، فعرف وجرب ، أخطأ وأصاب ، ففكر وتدبّر ، نزع إلى النهج الأول ، فأخفق وأدرك ، تاق إلى الهدى القديم ، فأعطى وحُرم ، احتفر ذخائر الفطرة ، فأكدت عليه تارة ونبعت ، التمس شوارد الاتقان ، فنذت عليه مرةً واستقادت» (١)

انظر إلى هذه الفاءات ، وكيف ربطت أوائل المعاني بآخرها . ربط مسبب بسبب ، ثم كيف تعادل هذا مع تلك المطابقات التي تتجلى بها الحقائق ، وتتميّز ، وتتحدّد ، وتوسع أيضاً ، ثم كيف توازن هذا مع الاستثناف الذي بنيت عليه أكثر الجمل ، فأفاد المعاني ضرباً زائداً من الاستقلال ، والتمييز ، والاحتفال . وصارت كل جملة تمثل حقيقة قائمة بنفسها ، يؤتلف لها الكلام اثنافاً ، ثم كيف تقاربت الجمل في عدد الكلمات ، فأحدث ذلك ضرباً من التزاوج ثم التشابه .

والإصابة في مواقع حروف المعاني على الحد الذي رأيناه يكون كما قلنا من النظر في تخليص المعاني ، وتحديددها ،

(١) القوس العذراء ص ٢٤

وتعليق بعضها على بعض ، وهو عند أهل العلم ضرب من تثقيف الكلام أشبه بطرائق أهل الطبع ، ثم هو عندهم فوق تخليص المجازات والمطابقات ، وفنون البديع ، لأن هذه وإن كانت دالة على التمكن ، وقوة النحيزة ، إلا أن تصارييف حروف المعاني أغمض مسلکاً وألطف موقعاً .



قلت : « إن القوس العذراء » منهج وطريق في خلق حياة فكرية ثرية وخصبة ، تقوم على ما بين أيدينا من تراث ، وليس على الاقتباس الذي أبطل عقولنا في كل فرع من فروع المعرفة ، حيث اتكأنا على ما كافحت في استخراجها عقول الآخرين .

وصار محصول ما بين أيدينا كما وصفه الأستاذ محمود

شاكر :

« ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غرباء ، صياغة مطابقة لمناهجهم ، ومنابتهم ، ونظراتهم ، في كل قضية ، واختلط الحابل بالنابل .. قل ذلك في الأدب والفلسفة ، والتاريخ ، والفن ، أو ما شئت ، فإنه صادق صدقاً لا يتخلف ، فالأديب مصور

بقلم غيره ، والفيلسوف مفكر بعقل سواه ، والمؤرخ ناقد
للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان نابض قلبه
بنبض أجنبي عن تراث فنه » (١)

وهذا هو الذى جاهد الأستاذ شاکر ويجاهد فى مطاردته ،
لتثبيت الاتجاه الصحيح ، وغرس القيم الفكرية الصحيحة فى
حياتنا العلمية .

« القوس العذراء » فكر ، وأدب حىّ جديد ، وضع الشماخ
نبتته ورواها شاکر بفيض من حسه وفكره ، فأزهرت وأورقت
وغنيت ، وصارت فى رياض المعرفة شجرة طيبة ، أصلها ثابت ،
وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين .

وهذا ما يجب أن يكون فى فروع المعرفة كلها ، وليس فى
الأدب فحسب ، يجب أن نقرأ كل باب من أبواب العلم
الذى كتبه علماؤنا ، قراءة كقراءة الأستاذ شاکر قوس
الشماخ ، ويجب أن نستخرج من كل باب ما استخرجه

(١) مجلة الثقافة العدد ٦٠ مقال « المتنبي .. ليتنى ماعرفته » ص ١٦

الأستاذ شاكر من قوس الشماخ ، وعندئذ سوف يكون بين أيدينا علم حافل هو علمنا ، وخلق عقولنا ، وقلوبنا .

وهذا لايتأتى إلا حين تلامس قلوبنا وعقولنا أصول هذه العلوم ، وفروعها ، ونفتش في مسائل العلم مسألة ، ونقف عند كل فكرة ، وكل كلمة ، وندير ذلك في أفئدتنا ، مرات ، ومرات ، حتى تعود قلوبنا منابت صالحة لهذه العلوم ، وكأنها تنبت فيها مرة ثانية ، نحس كل فكرة فيها ، وكل حقيقة ، ونصبر على ذلك حتى تولد الولايد في نفوسنا ، فنستخرج من الفكرة فكرة ، ومن الحقيقة الحقيقة حقيقة جديدة ، هي أوسع منها ، وأبعد ، وأعمق ، ولكنها منها ، كما أنّ « القوس العذراء » ، من قوس الشماخ .

والعقول الكبيرة التي عانت البحث عن الحقيقة حين تأسست العلوم تجد دائماً في كلامها غممة بحقيقة بعيدة وراء الحقيقة الظاهرة ، المدلول عليها في كلامهم دلالة مباشرة ، والخطأ هو الاكتفاء بهذه الحقائق الجهرية ، وإغفال تلك الحقائق المتوارية ، والتي وجدوا لها في عقولهم وميضاً ، فأومضت

بها عباراتهم إيماضاً على حد ما وجدوها في نفوسهم ، وهذا شيء
لا تخطئه العين التي طالت ممارستها لمثل كلام سيبويه ، والفارسي ،
وابن جني ، وعبدالقاهر وغيرهم من الذين تجد ألفاظهم مكتنزة
تنبض بكثير من الحقائق .

ويشير الأستاذ شاكر إلى هذه الحقيقة فيذكر أن سعة
الألفاظ واختزانها ليس في الشعر فحسب ، وإنما يجري ذلك
في كل ما تتناوله اللغة (١)

وترى حيناً قرأت للأستاذ شاكر بين يديك غرائب من الفكر
ودقائق من النظر ، ثم ما يلبث أن ينطق لك بها شاعراً من
شعرائنا أو عالماً من علمائنا ، وحينئذ تجد لهؤلاء العلماء
والشعراء الذين يذكرون في كتبه ، شيئاً آخر غير الذي تجده
لهم حين يساق كلامهم وهو مقهور ذليل يرسف في أغلال
الجهل والسطحية موسوم بفقدان المنهجية ، والتخلف ، فيه
بلادة وغفلة ، فلم يفتن إلى كذا ولا كذا ، مما تجده مطروحاً
بين يديك في أكثر الذي تقرأه ، سواء في ذلك كتب
الكبار ، أو كتب الصغار الذين يريدون أن يكونوا كباراً .

(١) ينظر أباطيل وأسمار ج ١ ص ٢٥

لاريب أن موقفنا من خلق حركة فكرية صحيحة موقف ليس صحيحاً ، وأصل ذلك موقفنا من تراثنا ، لأن قصارانا أن نقول فيه ، إن مراد القائل هو كذا ، ونقف من أفكار علمائنا موقف التلميذ من الدروس التي يجب أن يفهمها ، وليس موقف الأستاذ الذي يتدسس بعقله ، وفطنته ، وثقافته ، وأستاذيته ، في بطون الحقائق ليستخرج منها ما أجنّت وما أكنت ، وأن يمدّد ذلك ويبسطه فيصبح بين يديه حقيقة ذات أبعاد .

نقول مثلاً : إن الشماخ أراد أن الحُمر قصدت ذا الأراكة فمنعها عنها صائد درب ، هو عامر أخو الخضر ، وأنه محترف للصيّد ، لامنّجاة من رميته ، وأن له أسهماً نافذة ، وقوساً جيدة ، وهكذا نستمر في بيان ما أبان عنه الشماخ ، ونكتفي بذلك أو نأخذ بشيء من المعاصرة ، فنقول : إن هذه الأبيات لوحة جيدة من لوحات الصحراء ، فيها اللون ، والحركة ، والظلال ، وقد وزّع الشاعر كل ذلك ببراعة ، وكأنك ترى في يديه ريشة فنان بارع يغمس ريشته في وجدانه ، فيستخرج أغمض الألوان وأدق المشاعر ، وهكذا نستمر في

كلام كهذا الكلام متجهين إلى جهة واحدة ، هي أن نقول في شعرائنا مثل ما يقوله الناس في شعرائهم على الحد الذي نتصوره ، ونحن حين نفعل ذلك نعتقد أننا أفرغنا أبيات الشماخ من كل ما فيها في تحليلنا هذا بل وأنصفنا الرجل لأننا وضعنا في يديه ريشة الفنان البارِع ، وجعلنا أبياته لوحة .

ولا تجدنا نُدير عيوننا في أبيات الشماخ لنتلقط هذا الشعاع الذى التقطه الأستاذ شاکر ، وهو هذه الرابطة الحميمة بين الصانع وما صنع ، والتي كانت نَبْةً رَوَّاهَا قَلَمُ الأستاذ شاکر فَأَزْهَرَتْ « القوس العذراء » .

وكذلك يقال في قراءتنا للتراث كله ، نعتقد أننا حين نبين مراد القائل ، نكون قد وصلنا إلى قراره ، وأفرغناه من كل ما فيه فإذا أردنا أن نكون من ذوى المناهج العلمية ، قلنا : إن هذه الفكرة فى كلامه أصلها عند فلان وأنه أخذها ، ولم ينتبه ، وأنه حين يقول « قال بعضهم » إنما يريد فلاناً ، إلى آخر ما تجدنا نهتم به ، ثم نعتقد أننا لم ندع من الأمر شيئاً إلا

كشفناه ولهذا شاع القول بأن التراث قاذور ، وأن فلاناً من المحدثين كتب عن فلان من القدماء ، وهذا كله قاصر جداً في ضوء ما بيناه من الطريقة الواجبة في قراءة التراث على هدى ما رأيناه في « القوس العذراء » .

وهناك أسلوب شائع في تناول التراث يَصْطَنِعُهُ كثير من أهل العلم ، وهو أن نطالع ما عند الناس ثم نعود إلى تراثنا نتلمس ما يمكن أن يكون شبيهاً بهذه الأفكار ، سواء أكان الشبه مقارباً ، أو مما نَتَأَنَّى له بشيء من الحيلة والمسامحة .

والمحصلة أن نقول : إن عبد القاهر مثلاً سبق المحدثين في القول بكذا ، وأن سيبويه فطن إلى النظرية الفلانية . وهذا الطريق وإن كان يرضى زهونا التاريخي . وخاصة بعد ما أُلْحَ على عقولنا القول بفساد تراثنا ، حتى استيأسنا ، وظننا أننا قد كُذِّبْنَا حين اعتقدنا أننا أبناء أمة عريقة .

أقول هذا المنهج ، وإن كان يرضى غرورنا فليس لنتائج قيمة علمية ، لأن العلم لا يتقدم بهذا قيد أنملة ، وإنما علينا فقط أن نتنظر حتى يقول الذين يتكئون على عقولهم كلاماً جديداً ،

فى شأن من شئون الفكر والأدب ثم نخرج من الذى عندنا شيئاً يشبهه ، وكأننا نقول بلسان الحال : إذا كنا عاجزين عن أن نقول مثل ما تقولون ، فقد قال آباؤنا مثله ، وأن فكركم هذا الذى استبد بالعصر مهما جدد فلن يقع إلا بعيداً عن أعقاب آباؤنا .

ثم إن ثمة شيئاً آخر يحدث فى هذا الباب هو أن الأفكار التى نقول « عندنا مثلها » سرعان ما ينبذها أصحابها ، ويتجاوزونها ، ويأتون بشيء جديد ، وهم فى هذا ماضون على طريقهم من الجدد ، والالتكاء على عقولهم ، وعلينا إذن أن نخرج هذا الشيء الثانى من تراثنا .

وقد استهلكت هذه الطريقة جهوداً كثيرة من كتابنا . انظر إلى محاولات استخراج التجربة الشعرية ، والوحدة العضوية ، وأخيراً البنيوية والأسلوبية ، وقل أن تجد كاتباً فى الأدب ونقده لم يحاول أن يتلمس أشباهاً لهذا الفكر فى تراثنا .

والصواب هو أن نستخرج من تراثنا ما تهدينا إليه عقولنا ،
وافق الذى عند غيرنا أم لم يوافق ، المهم أن يوافق صريح عقولنا ،
وأن نرضاه ونستحسنه نحن ، بعيوننا ، وعقولنا ، وأن نجد
فيه كفاء لحاجتنا الفكرية والأدبية ، وهذا مطلب عزيز ، وإنما
يُنال بالصبر والمجاهدة .

وقد تبقى الفكرة فى الكتب صامته خرساء وتبقى على ذلك
دهوراً حتى تلامس عقلاً حياً صادقاً يحمل بين جنبه هذه
الهموم الشريفة ، فيستخرج منها أذكى ما يستخرج وأنبله .



وهذا النهج الذى خطّه « القوس العذراء » إحياءً وبعث
لطرائق الكلمة من أهل العلم فى تاريخ علومنا ، ولأريب فى أن
لدينا تجارب غنية فى إبداع المعرفة ، وإنشاء العلوم ، يمكن أن
نصطنع مسالكها كما اصطنعتها « القوس العذراء » بحدس
حضارى نادر .

علينا أن نعود إلى كلام الكبار من العلماء الأوائل ، وأن
نُطيل النظر فيه غير مستهدفين استيعابه فقط لأن الاستيعاب

وحده لايقدم ولا يؤخر فيما نحن فيه وإنما نستخرج خبأه ،
ونبعث الفكرة من وراء الفكرة ، ونستل الخيوط المضمرة من
غيبها ، ونعدها لنسج كلاماً آخر هو منها ، ولكنه غيرها .

وهكذا فعل الكبار ...

تأمل كلام عبدالقاهر في أى باب نشاء لا تُحصّل مادته
فذلك شيء يجب أن نكون قد فرغنا منه ، وإنما لترقب حركة
عقله ، وهو يكابد الإبداع ، وخلق الأفكار ، ويعتصر ما بين
يديه من حقائق سلفه ليستخرج منها رحيقاً جديداً .

تأمل باب التقديم الذى ما برح فيه يلج على استنطاق
كلمة سيويه « إنما يقدمون الذى بيانه أهم وهم بشأنه أعنى »
حتى غمغمت تلك المقولة بكل ما فى بحث التقديم مما يرى فى
دلائل الإعجاز وكأنه على غير مثال .

تأمل بحث القصر الذى أسّسه على محاوراة ذكية مع نص*
نقله من الشيرازيات ، وما زال يستلّ من هذا النص خيوطاً
ويستخرج من الخيوط خيوطاً ، حتى قدّم شيئاً جديداً ، ليس

هو كلام أبي علي ، وليس مقطوعاً عنه ، وإنما هو متناسل منه
كما يتناسل الحي من الحي .

وهكذا إذا تأملت كلام الشيخ مسألة مسألة ، وجدت
جنودها في كلام سلفه ، وفروعها منبثقة من فؤاده ، ودعك
من هذه الهرطقة التي تقول إنه تلميذ لأرسطو ، فليس لها
دليل واحد لايحتمل ، وقد كان الرجل ينسب إلى مصادر معارفه
وهي على هذا الحد الذي وصفناه ، وليس فيه مسألة واحدة
غائمة المصادر إلا عند من لاختبرة له بالتراث الذي كان بين
يدي الشيخ رحمه الله .

وقد عرضنا كثيراً من مسائله التي هي أوضح ما قالوا فيه
إنه استلال من كهف يونان الزاخر وبيناً مصادرها بياناً
لايلتبس (ينظر كتابنا خصائص التراكيب صفحات ٢٠ ،
١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، والتصوير البياني صفحات ١٣٣ ، ١٣٤ ،
١٣٥) .

ودع عبدالقاهر وانظر إلى تجربة أبي الفتح ، في كتاب
الخصائص وكيف استخرج من كلام سيوييه وأبي علي وغيرهما

علماً ليس هو علم سيبويه ، ولا علم الفارسي ، وإنما هو علم
أبي الفتح ، وكما استخرج عبدالقاهر من مضايء النحو علماً
آخر هو علم المعاني استخرج أبو الفتح من هذه المضايء نفسها
علماً آخر هو علم أصول النحو وقياس العربية وهو عند
ابن جنى « أشرف ما صُنِّف في علم العرب ، وأذهب في طريق
القياس والنظر ... وأجمعه للأدلة على ما أودعته هذه اللغة
الشريفة من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الإتقان
والصنعة » (مقدمة الخصائص) .

ونُلفت هنا إلى شيء مهم ، وهو أن اجتهاد أهل الاجتهاد
من أئمتنا الكملة رضوان الله عليهم ، لم يكن اجتهاداً في استخراج
مسألة من مسألة ، أو في استخراج باب من باب ، وإن كان
ذلك نفيساً وهو علينا عزيز ، وإنما كان يكون اجتهاداً في
استخراج علم من علم ، وتلك هي الغايات التي لا يدركها إلا
الآفراد . ومن العجيب أننا سكتنا سكوت من لا يعلم عن مناهج
هؤلاء في الاجتهاد والاستخراج ، وهي مناهج جديرة بأن
تُدرس ويُستخرج منها ، وتكون بدائل ذاهية لما ندرسه من

منهج البحث في معاهدنا لأنها تجارب كل خطواتها بين أيدينا ،
ثم هي أقرب إلى عقولنا لأنها مستخلصة من علومنا ، ومنهج
البحث الحديثة لم تذهب عقولنا كما نود ، ولم تحفز هممنا
نحو الإبداع ، والوصول إلى حقائق علمية جديدة ، والذي هو
المقصود أساساً من إحكام مناهج البحث ، وليس هذا قدحاً
فيها ، وإنما هو الواقع الذي نلمسه بأيدينا ، ولم أعرف عقلاً
ألف مضغ المنهج والحداثة ثم انبثق عن حقيقة مفيدة .

وأقول: إن استخراج مناهج هؤلاء الأعلام ليس هو هذا
التهاون الذي نجده في الكتب التي صُنِّفت عنهم ، والتي
نكتب فيها فصلاً عن المنهج ثم نكتب فيه عادة حقائق مثل
أن هذا العالم كان ينسب الرأي إلى صاحبه ، أو أنه كان
لا ينسبه ، وأنه يكون بصرياً في مسألة ، أو كوفياً في مسألة ،
أو أنه من مدرسة المتأدبين ، أو من مدرسة المتكلمين ، وأنه
كان يخرج الشعر ، والأحاديث أو أنه لا يفعل ذلك ، إلى آخر
هذه المعارف السطحية والتي يقع عليها القارئ المبتدئ .

ولابد أن يكون دارس منهج العالم من هؤلاء الأعيان قد
فطن لكل كلمة قالها ، ووعاها وعياً يستطيع به أن يقفوَ

أثرها حتى يصل بها إلى منابتها في كلام من سبقه ، أو يصل بها إلى انبثاقها في نفسه ، ثم يصف بدقة قصة الفكرة في عقل هذا العالم وكيف نماها ، ومن أى جهاتها جذبها حتى امتدت ، وكيف مَحْضُها حتى أخرج مَحْضُها ، وغير ذلك مما تجده حياً واضحاً بين عينيك حين تدبّر النظر في كلامهم وتعطيه حقه من العناية والصبر .

وهذا الباب الذى هو علم مناهج البحث في علوم العربية لايجوز أن ينهض به المبتدئ مهما كان إخلاصه ، ومهما كان جده وذكاؤه ، وإنما ينهض به الشيوخ من علمائنا ، الذين عكفوا الفكر على هذه العلوم ، وانجذبت رويّتهم إليها ، لأنها ليست دراسة في كلام العلماء ، وإنما هى نظر في منابع علومهم وترقيق أفكارهم بحركة عقولهم ، وارتياض قلوبهم للذى ارتاضته من عصية ، ومعاناة أفئدتهم فى اقتناص نافرده ، وتأليف شارده ، ولا أقل من أن نحفظ هؤلاء حرماهم ، ونبعد بهم عن هذا اللغو اللاغب الذى ضُرب على عقولنا ، ولانتدب لدراسة هذ الجانب فى تراثهم إلا من كان أشبه بهم هدياً وسمتاً .

وتجلية روح الاجتهاد المنطوية في التراث أمر ضرورى ،
وإشاعة هذه الروح كأصل من أصول المعرفة أمر ضرورى
وليس بين المتخصصين فى العلوم العربية والإسلامية فحسب ،
وإنما بين المشتغلين بالعلم فى كل فروعه ، لأن هذه الروح قيمة
إبداعية ، وحضارية لايجوز إغفالها ، وقد غابت عن الساحة
منذ زمن ، وصارت حياتنا الفكرية فى غيبة هذه القيمة تعاني
عُقمًا ظاهرًا . بل وعنوسة بغیضة شواء . والغريب أن هذا
التراث المنطوى على عناصر تستهدف إثارة أقدس ما فى الإنسان
من طاقات خلاقة ومبدعة ، يوصف بالجمود ، ويوصف
المحافظون عليه بالجمود والتخلف ، وأنهم يريدون أن يرجعوا
بنا إلى الوراء « تَحَبُّ بنا النَجِيَّةُ والتَّجِيبُ » وأنه ترسّخ فى
نفوسهم أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأن عيونهم
لا ترى أضواء العصر الباهرة ، إلى آخر ما تجده فى كتابات
تُذِيلُ أسماء كاتبیها بأنّه رئیس قسم كذا فى جامعة كذا ،
وهذا دليل قاطع على أن القيم الإبداعية فى تراث الأمة مطمورة
مُغَيَّبة عن عیون علمائها !!

ولیس هذا تقصیراً فحسب ، وإنما هو أمر منكر ، لانتجده
إلا عندنا ، وكلنا یسمع من طلابه ، ومحدثیه ما یدل دلالة

قاطعة على أنهم يفهمون أن الحفاوة بالتراث والعكوف عليه
يعنى إلغاء الطاقات الخلاقة ، والاكتفاء بالحفظ والاستيعاب
إلى آخر ما لا تجد في نفسك أمامه إلا الحيرة ، والتلدد ، ثم
الصمت ، لأنه جهل بألف باء حقائق التراث . وتاريخ الفكر
والعلوم في أمة تمتلك تاريخها ، وحاضرها . ومن أهم ما غرس
هذا الخطأ في النفوس ارتباط كلمات التطور والتجديد والحداثة
والمعاصرة بالأخذ عن الحضارة الغربية ، وكلمة التجديد
ارتبطت إرتباطاً وثيقاً بأمرين :

١ - الرمي في وجه القديم بعد قتله بحثاً !!

٢ - إغراء العقول بالفكر الغربي والترويج له ترويجاً ظاهراً .

وتجد الكتب تقوم على أساس عرض شريحة من الفكر
السلفي ، وقد يساء اختيارها ، ويهمل فهمها ، مع الزعم أنها
قتلت بحثاً ، ثم عرض شريحة من الفكر الغربي ثم التعليق على
كلام التقدماء بمثل هذا انظر لترى « وجهاً معروفاً بادی العظام
شاحباً يسير الحظ من الحيوية والنضرة » ثم التعليق على كلام
الغربيين بمثل هذا انظر لترى صورة أنضر وجهاً ، وأبهى قسماً
من تلك الصورة التي عرضها حديث الأقدمين »

الكل يقول مثل هذا مع اختلافهم فيما بينهم من حيث المنازع والاهتمامات والأهواء، وقد يقال في التعليق على كلام الغربيين شعراً ونقداً إننا لا نستقصى هنا ما في هذه الصور من جمال ومتاع ، أو دقة ونفاذ لأن ذلك يطول ، ويقال في التعليق على كلام علمائنا وشعرائنا إننا لا نستقصى ما في هذا من فساد أو سطحية ، أو نثرية ، أو فقدان مقومات الشعر أو الفهم ، وكأنك في معرض لوحات إعلامية للتشهير بالقديم « العربي الإسلامي » والتنويه بالحديث « الغربي المسيحي » ومع هزال هذا اللون من الإخراج وضعف مادته العلمية جداً والخطأ الصريح في تفسير المعروض من الصور القديمة « التراثية » وركاكة المعروض من الصور الحديثة ، وسطحيته ، والانبهار الصارخ في التعليق عليه ، أقول مع ظهور ذلك كله ، فقد نفذت هذه الأفكار وغدت العقول والقلوب ، وشكَّلت وجهة نظر جيل كامل ، أصبح الآن قائماً على أمر العلم والفكر والأدب في الجامعات وغيرها ، وقد صحبت هذه الأفكار جلجلة جهيرة بأستاذية قائلها ، وريادتهم ، وعلمهم الواسع بالتراث وجهادهم

(١) ينظر كتاب « فن القول » للشيخ أمين الخولي رحمه الله ، صفحات من ٣٣ إلى ٤٥ .

فى سبيل تجديده ، ومحاماتهم الشديدة عن القديم وغيرتهم
عليه من عقلية الشيوخ ، وهذا الذى يرى كأنه هدم هو فى
الحقيقة تجديد لعقل الأمة ، ووجدان الأمة ، وتراث الأمة أيضاً ،
وهذه النار التى يشعلها هذا الكلام فى عقل الأمة وتراثها ،
هى النار العظيمة المقدسة ، التى تجلو الجواهر وتزيل الخبث
إلى آخر ما أحاط بنفوس المبتدئين وهبأها لهذا الفساد فقرراً فيها
وتأثّل . وبهذا ومثله وهو كثير ، ارتبط التجديد فى نفوسنا
بالأخذ عن الغرب وارتبط التراث فى نفوسنا بمجافة التجديد
ثم الإغراق فى الجمود والدوران فى الدائرة المغلقة «مَحَلَّكَ سِرٌّ»

وغابت عن الأذهان فكرة انبثاق الجديد من غيب القديم
وإشاعة طرائق المفكرين المسلمين ، واجتهادهم وجهودهم فى خلق
المعرفة ، وقدراتهم الفائقة على تطويرها ، وكيف كانوا
يصبون عقولهم على انقيليل الخافت فيصبح كثيراً نافعاً ، وكيف
شقت عقولهم حجب الغيب عن خير كثير ، إلى آخر ما يلفت
إلى تلك الطاقة الهائلة فى التراث والتى هى قادرة لو أتقن
اصطناعها ، على إثارة ما أودع الله فى فطرة الإنسان من
طاقات ، وابتعث شعل القلوب والعقول تسطع وتدفىء . على

المحد الذي تجل في «القوس العذراء» . كل ذلك مسكوت عنه ،
ومضت البحوث والكتب على ما صيغت عليه العقول من النمط
والموال الذي ذكرناه .

وكل من أراد أن يكون ابن عصره مجدداً ، متحرراً ،
مستنيراً فهذا سبيله ، يسوق كلام القدماء في المسألة ، ثم يعلق
عليه بأنه صادر عن فقدان الوعي بكذا « بجوهر الشعر » ...
بحقيقة التجربة ... بالصدق الفني ... بالتناسق النفسى ...
بوظيفة الخيال ... بحقيقة الصورة ... بطبيعة اللغة ... إلى
آخر ما نرى ، والمهم أنه كلام صادر عن عدم وعى بالشئ الذى
يعالجه ، ثم يذكر فى المسألة نفسها نصاً مقتبساً ويعلق عليه ،
بأنه تحليل جيد لكذا أو فهم نافذ ووعى عميق إلى آخر ما تقرأ .
وهذا الأسلوب فى الكتابة سهل جداً وذلك مما أغرى به
لأن هذه التعليقات - بالحق أو بالباطل - أيسر بكثير من
الوقوف على النص لتفصيل مجمله ، وتوضيح مبهمه ، وتجلية
جوهره إلى آخر ما يعانیه أهل العلم فى كل أمة .

وصدقنى إن كتابة الكتاب من هذا النوع المتجدد المتطور
لأيسر كثيراً من فهم باب من كلام أبى الفتح ، فضلاً عن
سيبويه الذى يكاد يتغول العقول تغولا .

وصدقنى مرة ثانية إنك تستطيع أن تكتب من هذا اللون
بحوثاً ومقالات ، تشغل بها الناس من غير أن تشعر بالرهق
الذى يكاد يخلع نفسك ، وأنت تساور نصاً لبهاء الدين
السبكى .

وبعد ...

فإن أكن قد أصبت شيئاً من عطاء هذه الرسالة الجليلة
فذلك من فضل الله أستعينه سبحانه على شكره ، ثم أتقدم به
إلى كاتبها الفاضل عرفاناً لفضله .

وإن كنت لم أصب فمرد ذلك إلى مالا يطاق له دفع ، والله
حسبنا ونعم الوكيل .

إنه من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له ،
ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
ومن تبعهم بإحسان .

البلد الأمين فى ١٩ من ذى القعدة ١٤٠٢

د . محمد محمد أبوموسى

رقم الايداع بدار الكتب ٨٣/٤١٥٨

الترقيم الدولى ٠ - ٠٢٢ - ٣٠٧ - ٩٧٧
